الاستشراق انفتاح معرفي أم هدم حضاري ؟!

بداية فإننا نقرر ونؤكد أهمية مشاركة المعرفة والتواصل بين الأمم والحضارات، لاسيما في القضايا التي يكمل فيها البشر بعضهم بعضا، وقد جاء الإسلام بموقف واضح من هذه القضية عندما قال النبي (ﷺ):" **الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا** "([1])، فهذا نص واضح في الترغيب في المعرفة بكافة صنوفها، كما أن قوله (ﷺ) :"من تعلم لغة قوم أمن مكرهم"([2]) فهذا نص تنبيهي لتفادي الخطر، ومعرفة طبيعة العدو، وإن ثبت عدم وجوده في دواوين السنة، فإن المعنى حقيقي والآثر المترتب على هذا الكلام فاعل في واقع الأمة، كما يؤيده نص صحيح أخر، فعن زيد بن ثابت(رضي الله عنه) قال: أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب يهود، وقال: "إني والله ما آمن يهود على كتابي" فتعلمته، فلم يمر بي إلا نصف شهر حتى حذقته، فكنت أكتب له إذا كتب وأقرأ له، إذا كتب إليه". ([3])

هذا المهاد التأسيسي حول الموضوع الذي نتناوله يقودنا بالضرورة إلى تأصيل معرفي مفاده كالآتي :

أولًا: أن الإسلام اهتم بنقل المعرفة من أي حضارة أخرى ولم يمنع ذلك، وإنما كان سابقًا غيره من الحضارات الأخرى في ذلك الصدد.

ثانيًا: الإسلام لم يمنع من النقل عن الأخرين؛ بل شرع ذلك وتوسع فيه، وفي تراثنا مايؤكد ذلك بصورة واضحة وحاسمة، كموقف المأمون من حركة الترجمة التي قام بها وكافأ المترجمين على ذلك و" قويت في عهده حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية – وخاصة من اليونانية والفارسية – إلى العربية – فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والطب والعلوم التطبيقية والموسيقي .. ولم تكد تلك الذخائر النفيسة تصل إلى بغداد حتى عهد المأمون إلى جماعة من العلماء – منهم "حنين بن إسحاق" (194-264هـ) (809-877م) و"الحجاج بن نصر" و"ابن البطريق" (المتوفى 184هـ – 800م)، و"قسطا بن لوقا" البعلبكي تُوُفِيَّ حوالي (300هـ – 912م) و"ثابت بن قرة" المتوفى عام (288هـ -900م) وهم يشكلون المرحلة الأكثر تألقًا في حركة الترجمة العربية. في ترجمتها، وكان "قسطا بن لوقا" يشرف على الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية والكلدانية إلى العربية، كما كان "يحي بن هارون" يشرف على الترجمة من الفارسية القديمة([4]). فهذا يؤكد لنا مدى الانفتاح الحضاري لدى المسلمين، والتواصل المعرفي الذي قامت به الأمة في العهود السابقة.

ثالثًا: القضية المنهجية هنا هي إذا كان النقل والترجمة والتلاقح المعرفي عن الأمم الأخرى مباح في شريعتنا، فإن هناك سؤلًا منهجيًا حول هذه القضية، هو ماذا نأخذ وماذا ندع؟

رابعًا: يؤسس على هذا السؤال سؤال أخر،وهو لماذا نأخذ ولماذا ندع ؟

هذه كانت رؤية الإسلام في الترجمة ونقل المعرفة الغربية، والاستفادة منها، إنها حالة من التواصل والتلاقح الفكري، وخدمة الإنسانية في شتى الميادين، دون اقصاء أو هدم لمعرفة الأخرين؛ بل الاستفادة منها والعمل على تطويرها وفق الأطر الحضارية للأمة،فقد" أمتزج المسلمون بعد الفتح الإسلامي بأهل البلاد المفتوحة على الصعيد الاجتماعي والفكري، وبفضل الحرية العقدية، التي منحها الفاتحون لمختلف الطوائف والمذاهب الأخرى، واصل هؤلاء نشاطهم الثقافي من دراسة وتأليف وترجمة سواء كان ذلك في المراكز الثقافية والأديرة أو المكاتب الشخصية. وشهد العصر الأموي تفاعلاً حضارياً وفكرياً بين العرب المسلمين وأهل البلاد المفتوحة رغبة في التطلع نحو علوم هذه الأمم، فكانت البدايات الأولى لتعريب الفلسفة والطب والكيمياء والفلك . وقد توسعت حركة التعريب خلال القرن الأول الهجري بتأثير المسيحيين ورغبة بعض الأمويين"([5])

وبناءًا على ماتقدم فإن بحث قضية الاستشراق ليس جديدًا، وإنما تناولها كثير من الكتاب والمفكرين في مصنفات متعددة، وبحوث ومقالات بالاضافة إلى المحاضرات المرئية والمسموعة، وما يعنينا في هذا الصدد ليس تكرار المكرر أو مجرد تسويد صفحات من الكلام فقط، إن ما نعنيه ونقصد الآتي:

أولًا: الاستشراق حفريات في جذور المصطلح وحدوده المعرفية

تتفق معاجم اللغة حول مادة الاستشراق واستقاقها،وأنها من الجذر "استشرقَ يستشرق، استشراقًا، فهو مُستشرِق، واستشرق الأوربيُّ: اهتمَّ بالشرق والدراسات الشرقيَّة "مستشرق فرنسيّ: أديب فرنسيّ يهتمّ بدرس تراث الشّرق وحضارته ولغاته"([6]).

وتوسع بعضهم فقال : "استشرق: طلب علوم أهل الشرق ولغاتهم "مولدة عصرية"، يقال لمن يعني بذلك من علماء الفرنجة."([7])

من ذلك يمكننا أن ندرك الجذر اللغوي للاستشراق وأنه التوجه نحو الشرق ودراسة علومه ومعارفه، وعادته وتقاليده، وكافة ما يتعلق بالشرق حتى انتهى الأمر إلى دراسة السيسولوجي – علم اجتماع الأمم- وعلم النفس وطبيعة العقلية الشرقية ، ومزاجيتها، وكافة القضايا التي يمكن من خلالها تفتيت الجزئيات الكبرى إلى بيئات صغيرة يمكن من خلالها بناء رأي أو تصور حول تلك القضية أو هذا المحور .

ثانيًا: تحديد الهدف الحقيقي للاستشراق

إن تحديد الأهداف المتعلقة بكل قضية يساعد في إدراك تلك القضية، فما من شيء في الكون إلا وله علة، سواء أدرك البشر هذه العلة أم لا، والغرب لا يقوم بقضية لمجرد أنها قضية – وإن كان وجد ذلك في بعض تصورات المستشرقين– إلا أنه طبقًا لنظرية النفعية فإن الغربي نفعي في كافة قضاياه حتى ما يتعلق بالأخلاق والقيم والمبادىء، وهذه حقيقة لابد من التسليم لها. حتى نقف ونرصد أهداف الاستشراق الحقيقية، فإن خلف كل أمر ظاهر أمر أخر لم يسلط الضوء عليه حتى يمرر ويحقق أهدافه، والاستشراق من هذا الباب، فإن ظاهره خدمة علوم الأمة بكافة صنوفها إلا أنه يهدف إلى السيطرة على الأمة في النهاية، فقد " تعددت أهداف المستشرقين ما بين دينية، وسياسية، واستعمارية، ومما لا شك فيه أن الهدف الديني هو أساس أهداف المستشرقين، ويعد أهم أسباب نشأته، وقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تاريخه، وحتى نهاية القرن التاسع عشر، ولم يكن الاستشراق قد حرر نفسه من إيثار الخلفية الدينية التي اشتق منها أصلاً إلا بدرجة ضئيلة واتجاهات الهدف الديني تتمثل في محاربة الإسلام، ....، والزعم بأنه دين مأخوذ من المسيحية واليهودية،والانتقاص من قيمه، والحط من قدر نبيه، فضلاً عن حماية المسيحيين من خطر الدخول في الإسلام؛ وذلك بحجب حقائقه عنهم، واطلاعهم على ما فيه"([8])

إن الغرب يخشى قضية في غاية الخطورة بالنسبة له، إنها قضية دخول أوربا في الإسلام، ويحاول منع ذلك بكافة السبل، ومن بين تلك السبل وآكدها الاستشراق ؛ لذلك بعد " استشعارالغرب لقوته العسكرية والسياسية بعد أنْ استقرت فيه معالم نهضته الفكرية والحضارية عبر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، ثم بدأ في اكتساح العالم خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وكان هذا يقتضي أمرين: أن يُهيأ الرأي العام الغربي لمثل هذا العمل، لأن الاقتحام العسكري والاختراق الثقافي والسياسى والاقتصادي سيكلف الغرب الكثير، وينبغي أن يضحي من أجل ذلك بقوى عسكرية، وبإمكانات اقتصادية، وبتسخير قدرة الأجهزة العلمية – إلى حين – لهذه المشكلة المثارة. فالمستشرقون هم الذين صوروا الشرق أمام الغرب، هم الذين قالوا من هم المسلمون ماهي خصائصهم العقلية، ما هي ثقافتهم، ما هي أعرافهم وتقاليدهم، إلى أي شيء يدفعهم الإسلام، وكم يؤثر فيهم، في الوقت الذي توضع فيه الخطط العسكرية والاقتصادية. هذا الأمر – تصوير الشرقيين أمام الغربيين – كان هدفًا من الأهداف الكبيرة لحركة الاستشراق، إذ كان المطلوب إعطاء صورة معينة تمكن من الغزو العسكري، والاقتصادي، والثقافي، وهكذا بدأت الدراسات التي اتسمت بطابع عرقي في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، والتي أدت أولاً إلى تقسيم البشر إلى ساميين وآريين وحاميين، وأن هؤلاء البشر يتمايزون تمايزاً عرقياً، وأن خصائصهم العقلية والجنسية تتباين"([9])

وهكذا تتضح المسارات أمام القارىء في قضية الهدف الحقيقي من الاستشراق ،والفارق الجوهري بين حركة الترجمة التي قادها المسلمون في العصور الأولى، وبين حركة الاستشراق التي يقودها الغرب، وتهدف إلي هدم الأمة في النهاية .

ثالثًا: أساليبه لتحقيق تلك الأهداف

أساليب الغرب متعددة في السيطرة على الأمم، وعلى رأس تلك الأساليب العقل، فالغرب يتعامل مع كافة القضايا من منظور عقلي بعيدًا عن العواطف أو الانفعالات الوقتية التي تؤدي إلى تحقيق الأهداف المنشودة، وهذا أمر مركوز في تكوينهم الجيني وفقًا لطبيعة البيئة الباردة التي يقيمون فيها كما يقول علماء الاجتماع .

بالاضافة إلى أنه "قد جَنَّدَ الاستعمار بعض المستشرقين – كما يقول الدكتور مصطفى السباعي – لتسميم هذا المنبع الروحي، فنصبوا الفخ باسم البحث العلمي والتفكير الحر، وجاء نفر فوقعوا في الفخ، وراحوا يُرَوِّجُونَ بضاعة الغُزاة، إما عن جهل بحقيقة التراث الإسلامي، أو عن انخداع بالأسلوب العلمي المزعوم، وإما عن رغبة في الظهور بمظهر التحرر العقلي وشجاعة الرأي، وإما عن انحراف فكري ووجداني بتأثير الاستهواء".([10])

أساليب الاستشراق أصبحت الآن مقعدة بصورة كبيرة ،وهذا ما يجعل الاستشراق ليس حسن النوايا أو الهدف منه البحث العلمي ومشاركة المعرفة بين الأمم كما كان المسلمون يفعلون ذلك؛ بل هو هدم حضاري وإحلال واستبدال نماذج فكرية مركوزة في العقل المسلم بقضايا أخرى تحت غطاءات متعددة، كخدمة السنة والقرآن وغيرهما العلوم الإسلامة، والعلوم التجريبية، وما يؤكد ذلك أن الغرب لا يسمح بمشاركة الأمة في قضايا التنمية الحقيقية والعلوم التقنية والطبية الحديثة بل يمنع ذلك بكافة السبل، ومن هذا ندرك نية الاستشراق الحقيقية في ذلك .

رابعًا: هل الاستشراق مقتصر على علوم الشريعة أم لا؟

الاستشراق لا يقتصر على العلوم الشريعة والمتعلقة بالكتاب والسنة فحسب، وإنما يهدف إلى أكبر من ذلك ، فكافة المعرفة مستهدفة من قبل الاستشراق ، حتى لا يمكن للأمة القيام من جديد، وهم بذلك يقفون حجر عثرة أمام ذلك بكافة السبل ، فالعماء النابغين في الأمة يتم استقدامهم للعمل في الغرب، وبذلك لا تستفيد منهم الأمة ويصبح نتاجهم المعرفي للحضارة الغربية، والعلماء الذين يمتنعون عن ذلك لا مكان لهم ، وبذلك ندرك طبيعة الاستشراق وكيف يتعامل معنا وأنه لا يقتصر على العلوم المتعلقة بالشرع فحسب، وإنما هي دائرة مكتملة الأقطار .

خامسًا: وموقف الأمة من الاستشراق

الأمة مطالبة في مجموعها بإدراك هذه الحقائق التي أوردناها في هذه الورقة بالألة؛ ولهذا فإن أول تلك الخطوات الوعي بحقيقة الاستشراق ، ثم الانتقال إلى قراءة وترجمة المنجز المعرفي الغربي والوقوف على دقائق هذا المنجز، وليس الانشغال بترجمة الروايات والقصص وغيرها من القضايا البسيطة؛ بل لابد من ترجمة العلوم التي تخدم الأمة بصورة مباشرة والتقنية الحديثة، والتكنولوجيا حتى نتمكن من استدراك ما فاتنا .

([1]) **أخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب الزهد/باب الحكمة؛(5/ 269)** قال المحقق شعيب الأرنؤوط إسناده ضعيف جدا، إبراهيم بن الفضل -وهو المخزومي- متروك. وأخرجه الترمذي (2882) من طريق عبد الله بن نمير، بهذا الإسناد. وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المخزومي ضعيف. وفي الباب عن علي عند الديلمي في "مسند الفردوس" 2/ 101، وفي إسناده أبو الدنيا المعمر، وهو كذاب. وعن زيد بن أسلم مرسلا عند القضاعي في "مسند الشهاب" (146). وفي إسناده هشام بن سعد المدني، وهو ضعيف.

([2]) **قال الشيخ ابن باز (رحمه الله)"** ليس له أصل، هذا من كلام بعض الناس، ما هو من كلام النبي ﷺ من كلام بعض العلماء. نعم.، موقع الشيخ ابن باز، متاح على الرابط الآتي: https://binbaz.org.sa/fatwas/

([3]) **أخرجه أبو داود (3/ 318) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط :** صحيح. وهذا إسناد حسن من أجل ابن أبي الزناد واسمه عبد الرحمن-. أبو الزناد: هو عبد الله بن ذكوان. وأخرجه الترمذي (2912) من طريق عبد الرحمن بن أبي الزناد، بهذا الإسناد. وقال: هذا حديث حسن صحيح. وعلقه البخاري (7195) بصيغة الجزم. وهو في "مسند أحمد" (21618). وأخرجه أحمد (21587)، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (2038)، وابن حبان (7136) من طريق الأعمش، عن ثابت بن عُبيد، عن زيد بن ثابت قال: قال لي رسول الله – صلَّى الله عليه وسلم -: "تُحسن السُّريانية؟ إنها تأتيني كتب" قال: قلت: لا، قال: "فتعلَّمْها" فتعلمتها في سبعة يوماً. وهذا إسناد صحيح. وثابت بن عبيد نص البخاري على سماعه من مولاه زيد بن ثابت في "تاريخه "الكبير"، وأخرج في "الأدب المفرد" (286) ما يفيد أكثر من سماعه من زيد بن ثابت، خلافا لما ظنه الذهبي في "تاريخ الإسلام" من أن روايته عن مولاه منقطعة.

([4]) عبد الفتاح مصطفى غنيمة: العلم والترجمة في عهد الخليفة المأمون،5/7/2010م، متاح على الرابط الآتي: http://www.aslein.net/showthread.php?t=12444

([5]) خالد يوسف صالح: **حركة الترجمة في بلاد الشام العصر الأموي(41هـ- 132هـ)(661م-750م)**، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد ١١ ، العدد1، ص234

([6]) **أحمد مختار عبد الحميد عمر :** معجم اللغة العربية المعاصرة، **معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429 هـ – 2008 م** (2/ 1192)

([7]) **أحمد رضا :** معجم متن اللغة، **معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة)،دار مكتبة الحياة – بيروت** (3/ 310)

([8]) صلاح سالم باعثمان: منهج المستشرقين في دراسة القضايا القرآنية، حولية كلية أصول الدين، الأزهر الشريف ، جامعة المنوفية، ع 36،1437هـ، 2017، ص17.

([9]) **أكرم بن ضياء العمري :** موقف الاستشراق من السُنَّة والسيرة النبوية، **الجامعة الإسلامية – بالمدينة المنورة. كلية الدعوة، ص50.**

([10])أنور الجندي: السنة النبوية في مواجهة شبهات الاستشراق ، (ص: 8)